تراث الإنسانية

ما بعد الطبيعة

لأرسطوطاليس

د. عبد الرحمن بدوى



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

مابعد الطبيعة

مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

ما بعد الطبيعة لأرسطو طاليس

د. عبد الرحمن بدوى

يحتل هذا الكتاب مركز الصدارة بين مؤلفات أرسطو طاليس وفيه أودع جماع فلسفته على أنه - كما أثبت ييجر - ليس كتاباً واحداً قصد أرسطو طاليس إلى تأليفه قصداً ، بل هو مجموع كتابات خطها فى ظروف مختلفة وأطوار من حياته متباينة ، ومن هنا لا يؤلف كلاً واحداً تسرى فيه روح واحدة ؛ كما تطرق الشك إلى صحة نسبة بعض فصوله إلى أرسطو طاليس.

حياة ارسطو طاليس

ولد أرسطو طاليس فى سنة ٣٨٤ ق . م . بمدينة اسطاغيرا ، وهى مستعمرة قديمة أيونية على الشاطىء

الشرقي من خلقيدية . وكان أبوه نيقوماخوس ، من جماعة الاسقلابيين ، وهي نقابة الأطباء في بلاد اليونان وكان طبيباً خاصاً لأمونتاس الثاني ملك مقدونية، ووالد فيليب المقدوني الذي كان بدوره والد الاسكندر الأكبر . أما أمه فكانت أسرتها من خلقيس في يوبيا وفقد أرسطو والده في سن مبكرة ، وليس من المحتمل أن يكون قد تعلم منه الطب.

وحوالي سنة ٣٦٦ ق . م وأرسطو في سن الثامنة عشرة جاء إلى أثينا ودخل الأكاديمية ، وهي المدرسة التي كان يدرّس فيها أفلاطون مؤسسها . فدرس على أفلاطون وظل يتتلمذ له حتى وفاة الأستاذ ، مشتركاً في التعليم في الوقت نفسه ومؤلفاً لبعض المؤلفات الصغيرة المكتوبة غالباً على هيئة محاورات ، تقليداً لأسلوب الأستاذ (أفلاطون) في الكتابة . توفي أفلاطون في سنة ٣٤٨ ق . م فتولى رئاسة الأكاديمية ابن أخته اسپوسيپوس ، فغادر أرسطو أثينا ورحل هو وزميل له في الدراسة يدعى اكسينوقراط إلى طرواد عند الطاغية هرمياس الأترني ، وقام بالتدريس والبحث العلمي والاجتماعي . وبعد عامين أو ثلاثة نقل أرسطو مدرسته إلى ميتلين في جزيرة لسبوس ، لكنه لم يقم ثم طويلا إذ

دعاه فى سنة ٣٤٣ ق.م فيليب المقدونى إلى بلاطه فى مقدونيا ليكون مربياً لابنه الأسكندر الذى كانت سنه آنذاك ١٣ سنة.

وفى مقدونيا علم أرسطو بنبأ وفاة هرمياس سنة ٣٤١ ، فجاءت أخت أو بنت أخى هرمياس ، وهى فوثياس ولجأت إلى فيليب ، فتزوجها أرسطو . لكنها ماتت بعد قليل بعد أن أنجبت منه بنتاً ، فتزوج أرسطو مرة ثانية من امرأة من بلده ، اسطاغيرا ، وهى التى أنجب منها ابنه نيقوماخوس الذى أهدى إليه كتاب «الأخلاق».

لكن لم تطل مهمة أرسطو مربياً للأسكندر ، إذ تولى هذا العرش بعد ذلك بثلاث سنوات ، فانهمك فى الحياة العسكرية والسياسية. لكن أرسطو لم يفارقه إلاّ بعد ذلك بمدة فى سنة ٣٣٥ ق . م ، إذ جاء فى هذه السنة إلى أثينا وفتح مدرسة بالقرب من معبد أپولون اللوقيونى، ومن هنا سميت هذه المدرسة باسم «اللوقيون»، قامت تنافس أكاديمية أفلاطون التى صار على رأسها آنذاك زميله القديم أكسينوقراط . وظل أرسطو يدرس فى مدرسته هذه طوال اثنتى عشرة سنة، ويقوم بالأبحاث الفلكية والتشريحية والجوية والبيولوجية.

ولما توفى الأسكندر الأكبر فى سنة ٣٢٣ ق . م أصبحت اللوقيون مهددة من جانب الحزب المعادى للمقدونيين . لهذا رأى أرسطو من الحكمة ألا يجعل الأثينيين يرتكبون نفس الجريمة التى أرتكبوها مع سقراط ، فلجأ إلى مدينة خلقيس وطن أمه ، حيث توفى فى السنة التالية ، سنة ٣٢٢ ق . م وهو فى سن الثانية والستين.

مؤلفاته

ومؤلفات أرسطو عديدة متنوعة بحيث تؤلف دائرة معارف عصرها . وقد ذكر لنا بطليموس الغريب عنوانات ٨٢ منها تتألف من ٥٥٠ مقالة . لكن قسماً كبيراً جداً منها ضاع ولم يصل إلينا . لكن لحسن الحظ أن الذى بقى هو الجانب الأهم . نلك أن مؤلفاته تقسم إلى قسمين : «كتب منشورة» ويقصد بها إلى عامة الجمهور ؛ و «كتب مستورة» ويقصد بها إلى خاصة التلاميذ والمختصين وفيها العرض الشامل لمذهبه . ومعظم أو جل ما ضاع ينتسب إلى النوع الأول . وأما من حيث الأسلوب فالنوع الأول أجمل ،

روعيت فيه مقتضيات البلاغة ، ولهذا قال عنها شيشرون إنها «نهر ذهبى يفيض بالبلاغة» . وعلى العكس من ذلك كان النوع الثانى ، وهو الموجه للخاصة، ينقصه إحكام التأليف وبلاغة العبارة ، ولهذا جاء بعضه كأنه مجرد مذكرات يستعان بها فى إلقاء المحاضرة ، أو على هيئة شذرات غير متناسقة تماماً.

وتقسم كتب أرسطو من حيث الموضوع إلى الأقسام التالية :

(أ) الكتب المنطقية .

(ب) الكتب الطبيعية .

(ج) الكتب الميتافيزيقية .

(د) الكتب الأخلاقية .

(هـ) الكتب الشعرية .

(أ) الكتب المنطقية وتشمل

١- «المقولات» وفيه يبحث فى أعم الصفات التى تطلق على الموجودات من الناحية المنطقية : الجوهر ، الكم، الكيف ، المكان ، الزمان ، الإضافة ، الوضع ، المِلْك ، الفعل ، الانفعال .

٢- «العبارة» وفيه يبحث فى القضية من الناحية المنطقية.

٣- «التحليلات الأولى» - وهى بحث فى القياس.

٤- «التحليلات الثانية» - وهى بحث فى البرهان.

٥- «المواضع الجدلية» ويبحث فى الحجج المحتملة.

(ب) الكتب الطبيعية

٦- «السماع الطبيعى» وهو كتابه الرئيسى فى علم الطبيعة ، ويقع فى ثمانى مقالات ، ويدرس الحركة والطبيعة والزمان والمكان.

٧- «فى النفس» ويبحث فى الحياة فى مختلف أشكالها، خصوصاً الحياة الحسية والعقلية ، ووظائف النفس ، وقواها ، والعقل.

٨- «فى الكون والفساد» - ويبحث فى تكون الأشياء وانحلالها.

٩- «فى السماء» ويبحث فى الاجرام بنوعيها : الفاسدة وهى الواقعة تحت فلك القمر ، والخالدة وهى الأجرام السماوية.

١٠- «تاريخ الحيوان» وهو دراسة علمية للحيوان.

(ج) الكتب الميتافيزيقية

١١- «ما بعد الطبيعة» ـ وهو موضوع هذا البحث.

(د) الكتب الأخلاقية

١٢- «الأخلاق إلى نيقوماخوس» ـ أهداه كما قلنا إلى ابنه ؛ والكتاب صحيح النسبة إلى أرسطو . وفيه يدرس الأخلاق والفضائل الخ.

١٣- «الأخلاق إلى أوذيموس» أو بالأحرى «الأخلاق تأليف أوذيموس» ـ إذ يشك تماماً في صحة نسبته إلى أرسطو ، وهو بالأحرى بقلم أوذيموس.

١٤- «الأخلاق الكبرى» ـ وهو منتزع من الكتابين السابقين ، ومن الراجح أنه ليس لأرسطو .

١٥- «السياسة» ـ ويبحث في الدولة ونظمها.

١٦- «دستور الأثينيين» ـ وهو واحد من ٥٢ دستوراً درسها أرسطو ، وقد عثر عليه في سنة ١٨٩١ بالفيوم بمصر.

(هـ) الكتب الشعرية

١٧- «في الشعر» ـ ولم يبق منه إلا قسم ، وفقد القسم المتعلق بالقومودية ، بينما بقى لنا ذلك المتعلق بالطراغُودية.

كتاب «ما بعد الطبيعة»

هذا العنوان : «ما بعد الطبيعة» لم يضعه أرسطوطاليس ، بل وضعه أندرونيقوس الرودسي (عاش في القرن الأول قبل الميلاد) وهو يرتب كتب أرسطو بعضها تلو البعض فجاء هذا الكتاب بعد كتاب «الطبيعة» («السماع الطبيعي») ولهذا سماه «ما بعد الطبيعة» أي : التالي في الترتيب الذي وضعه هو لكتاب الطبيعة. فالمسألة مسألة ترتيب خارجي فحسب ، ولا شأن له بموضوع الكتاب . أما الاسم الذي كان يطلقه أرسطو نفسه على هذا الكتاب فهو : «الفلسفة الأولى».

و «كتاب ما بعد الطبيعة» يتألف من ثلاث عشرة مقالة ترقم بالحروف اليونانية من ألف إلى نو ؛ لكن مقالة الألفا تقسم أحياناً إلى قسمين : ألفا الكبرى ، وألفا الصغرى، وبذلك يصبح عدد المقالات أربع عشرة مقالة.

وهاك ملخصاً إجمالياً بما في كل مقالة :

١- المقالة الأولى (ألفا الكبرى) : تعرف الفلسفة بأنها تفسير الأشياء بأسبابها ، أو عللها ؛ والعلل أربع: علة فاعلية ، علة غائية ، علة مادية ، علة صورية . وهذه الأخيرة هي الأهم في نظر أرسطو ، وهي المعنى الحقيقي للعلة . ومن الفصل الثالث حتى العاشر يأخذ أرسطو في بيان تاريخ الفلسفة قبله ابتغاء أن يبين أنه لم يتم حتى الآن وضع حل لمشكلة الحقيقة ، لأن الأبحاث لم تقم على العلل الأربع التي كشف عنها أرسطو في القسم الأول من هذه المقالة . وهكذا يتأيد القسم الأول النظرى بالقسم الثانى التاريخى . ولهذا القسم الثانى أهمية خاصة بالنسبة إلى تأريخ الفلسفة اليونانية.

٢- المقالة الثانية (ألفا الصغرى) : موجزة جداً ، ويشك في صحة نسبتها إلى الكتاب وإلى أرسطو نفسه . وفيه يردد نفس الذى قاله في المقالة الأولى من أن الفلسفة هي البحث عن العلل النهائية . ولابد من التوقف عند علل نهائية ، لأنه لا يمكن الاستمرار إلى غير نهاية.

٣- المقالة الثالثة (بيتا) يتناول فيها ١٤ مسألة

ميتافيزيقية ويبين الحجج المؤيدة والحجج المعارضة . ومن هنا جاء بحثه هنا على هيئة شكوك (أپوريات) . فمثلا يبحث (١) هل ينتسب إلى علم واحد أو إلى عدة علوم ـ البحث فى كل أنواع العلل؟ (٢) هل مبادىء البرهان موضوع علم واحد أو عدة علوم ؟ (٣) هل ها هنا علم واحد لكل الجواهر ، أو عدة علوم؟ (٤) هل نقر بوجود جواهر محسوسة فقط ، أو نقر أيضاً بوجود جواهر غير محسوسة ؟ (٥) هل علم ما عبد الطبيعة لا يشمل غير الجواهر ، أو يشمل أيضاً الأعراض الخاصة بالجواهر ؟ (٦) هل الأجناس عناصر ومبادىء للموجودات ؟ أو هذا هو من شأن الأجزاء الأولى المؤلفة لكل فرد؟ (٧) ولو سلمنا بأن الأجناس هى المبادىء الحقيقية فهل ينبغى أن نعد المبادىء هى الأجناس الأولى أو الأنواع الدنيا التى تقال مباشرة على الأفراد ؟ (٨) إذا لم يكن هاهنا غير الأفراد ، والأفراد عددهم لا يتناهى ، فكيف يتأتى الحصول على علم بلا نهائية الأفراد؟ (٩) إذا لم توجد وحدة بين المبادىء فكيف تتم المعرفة؟ (١٠) إذا كانت المبادىء واحدة هى هى نفسها ، فكيف حدث إذن أن بعض الموجودات تكون وتفسد ، والبعض الآخر لا يكون ولا يفسد ـ وما السبب

فى ذلك؟ (١١) هل الموجود والواحد جواهر للأشياء أو ثم حقيقة أخرى هى موضوع الموجود والواحد ، وينبغى البحث عن طبيعتها ؟ (١٢) هل العناصر توجد بالقوة ، أو على نحو آخر؟ (١٣) هل المبادىء كلية أو تندرج تحت الأمور الفردية؟ (١٤) هل الأعداد والأجسام والسطوح والنقط جواهر أو غير جواهر؟

٤- المقالة الرابعة (الجما) : موضوع علم ما بعد الطبيعة هو البحث فى الموجود بما هو موجود . وفى هذه المقالة يبحث أرسطو فى الموجود بما هو موجود ، أي من حيث وجوده فقط ، كما يبحث فى البديهيات وفى مبدأ التناقض . وتنقسم المقالة إلى قسمين : الأول (فصل ١ – ٢) يحدد موضوع الميتافيزيقيا ؛ والثانى (الفصل ٣ – ٨) نقدى يشمل برهاناً غير مباشر على المبادىء الأولى ، وخصوصاً مبدأ التناقض.

٥- المقالة الخامسة (الدلتا) : هذه المقالة عبارة عن قاموس فلسفى ، إذ فيها يقدم أرسطو ثلاثين تعريفاً مفصلاً لثلاثين مصطلحاً فلسفياً هى:

المبدأ ـ العلة ـ العنصر ـ الطبيعة ـ الضرورى ـ الواحد ـ الموجود ـ الجوهر ـ ذات الشىء ، المخالف ،

المباين ـ الشبيه ـ المتقابلات ، المتضادات ، الغيرية النوعية ـ المتقدم والمتأخر ـ القدرة ، قادر على : العجز، عاجز عن ـ الكم ـ الكيف ـ الإضافة ـ التام ـ النهاية ـ فيه ، وبه ، ومن أجله ـ الوضع ـ الحال ـ الانفعال ـ العدم ـ المِلْك ـ يصدر عن ـ الجزء ـ الكل ـ المبتور ـ الجنس ـ الزائف ـ العَرَض .

وواضح أن هذه المعجم الفلسفى لا يمكن أن يكون جزءاً من الكتاب الأصلى ، ولهذا يميل الباحثون إلى القول بأنه كان فى الأصل رسالة قائمة برأسها ثم أدمج فى كتاب ما بعد الطبيعة ، خصوصاً وأن ذيوجانس اللائرسى (٥ : ٢٧) يذكر من بين مؤلفات أرسطو رسالة عنوانها : «فى الأمور التى تقال بعدة معانٍ».

ولم يتخذ أرسطو فى ايراد هذه الألفاظ أية قاعدة .

٦- المقالة السادسة (مقالة الإپسلون) : وفيه يتناول الشك الأول الذى وضعه فى مقالة البيتا وأشرنا إليه من قبل ، ويتعلق بوحدة أو كثرة العلم المتعلق بالعلل الأولى. والموضع المهم فى هذه المقالة هو النقطة الواردة فى ختام الفصل الأول وفيها يحاول أن يوفق بين التصور

اللاهوتى الذى ورثه عن أفلاطون والذى يتميز بالقول بوجود إله عالٍ واحد، وبين التصور الانطولوجى للميتافيزيقا بوصفها العلم الكلى بالموجود.

وبعد أن يميز أرسطو بين الفلسفة الأولى وبين سائر العلوم النظرية ، ويحدد طبيعتها وميدانها ويضع تقريرات حاسمة جديدة عن الموجود بما هو موجود، ينتقل إلي دراسة المعانى المختلفة للوجود بحيث يستبعد من ميدان الميتافيزيقا على التوالى : الوجود بالعَرَضَ (فصل ٢ - ٣) والوجود بمعنى الحق (فصل ٤) ، إذ الأول غير قابل للعلم ، والثانى ليس إلا تعديلاً للفكر . كذلك يبحث فى تحديد العلاقة بين الميتافيزيقا وسائر العلوم، الفزيائية والرياضية . ويبين معنى الحق والباطل .

٧- المقالة السابعة (الزيتا) : يأخذ فى دراسة الموضوع الأساسى للميتافيزيقا وهو مشكلة الجوهر وينتهى إلى أنه لا يمكن أن نعزو مرتبة الجوهر إلى الجنس والهيولى والكلى والفرد أو أجزائه ، بل فقط إلى الماهية ، أى إلى الصورة ، لا الصورة بالمعنى الأفلاطونى ، بل الصورة غير المفارقة ، القائمة فى المحسوس ، والتى هى موضوع التعريف.

٨- المقالة الثامنة (الإيتا) : وتبحث فى الجوهر من ناحية الصورة والهيولى ، وتحلل طبيعة هاتين.

٩- المقالة التاسعة (الثيتا) : وتبحث فى الجوهر منظوراً إليه فى وجوده وتغيره على ضوء مبدأى الفعل والقوة . والبحث الأساسى فيه يتعلق بالقوة والفعل وأنواعهما المختلفة وعلاقاتهما المتبادلة . وبهذا ينتهى البحث الذى بدأه أرسطو فى المقالة السادسة عن معانى الوجود.

١٠- المقالة العاشرة (الايوتا) وفيه يختم بحثه عن مبادىء الجوهر . فيعود إلى التحدث عن معانى الواحد : الواحد بمعنى المتصل ؛ الواحد بمعنى الكل ؛ الواحد بمعنى الفرد ؛ الواحد بمعنى الكلى . ثم ينتقل لبيان الكيفية التي بها يوجد الواحد . ويقابل بين الواحد والكثير ، ويفسر معنى التضاد ، ويشبع القول فى الواحد والكثير ، والغيرية النوعية.

١١- المقالة الحادية عشرة (الكپا) : تنقسم إلى قسمين متباينين : الأول (فصل ١ - ٧) تكرار لماسبق أن ذكره فى المقالات الثالثة والرابعة والسادسة . والقسم الثانى (فصل ٨ - ١٢) منتزع من كتاب

«السماع الطبيعى» ؛ وهذه المقتبسات يبدو أنها من عمل أحد تلاميذ أرسطو ، لسوء كتابتها ، ويمكن أن يعد هذا القسم الثانى مدخلا إلى ما بعد الطبيعة . وليس ثم اتصال طبيعى بين القسمين.

١٢- المقالة الثانية عشرة (اللامدا ، مقالة اللام) تحتل هذه المقالة المركز الرئيسى فى الكتاب ، والصعوبات حولها عديدة . وقد رأى الباحثون المحدثون وعلى رأسهم بونتس ورص وييجر أن هذه المقالة تؤلف رسالة قائمة برأسها ، مستقلة عن كتاب ما بعد الطبيعة، موضوعها تقرير وجود محرك أزلى أبدى غير متحرك للكون وطبيعة هذا المحرك.

ويرى ييجر أن هذه المقالة ترجع إلى عهد مبكر فى حياة أرسطو ، وأنها كانت فى الأصل محاضرة ألقيت على الجمهور ، ومن هنا عنى أرسطو بتحريرها فجاء أسلوبها متقناً بخلاف سائر مقالات الكتاب ؛ لكن يجب أن نستبعد منها الفصل الثامن (فيما عدا الفقرة ١٠٧٤ أ ٣٢ - ٣٧) الذى يرجع إلى عهد متأخر فى حياة أرسطو يمثل تقدماً هائلاً بالنسبة إلى ما فى سائر المقالة.

وتنقسم المقالة إلى قسمين منفصلين : الأول من الفصل ١ إلى ٥ ، والثانى من الفصل ٦ إلى ١٠ . فى الأول يلخص بسرعة النتائج المتعلقة بمشكلة الجوهر وينتهى إلى تقرير وجود موجود أول . والثانى يبحث فى الموجود الأول وصفاته ، وينتهى إلى تفضيل القول بالوحدانيّة ؛ لكنه فى الفصل الثامن يفضل التعدد ويقول بعدة محركين أوائل إما أن يكون عددهم ٤٧ أو ٥٥ .

١٣ و ١٤- المقالتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة (المو والنو) : مقالتان نقديتان تنقدان بالتفصيل المذاهب التى تضع مبدأ الحقيقة خارجاً عنها ، أى التى تقول بالصور (المثل الأفلاطونية) أو الأعداد (الفيثاغوريون والنزعة المتأثرة بالفيثاغورية فى الأكاديمية قبيل وفاة أفلاطون وبعيد وفاته) وهما يؤلفان كلاً واحداً فى نقد نظرية الصور ونظرية الأعداد.

* * *

وبعدهذا التخطيط الاجمالى لكتاب ما بعد الطبيعة نلخص موضوعه:

الناس بطبعهم يرغبون فى المعرفة ، والدليل على ذلك اللذة التي تنشأ عن الاحساس ، خصوصاً الإبصار ، لأنه الأقدر على جلعنا نحصل قدراً أكبر من المعرفة.

لكن الإحساس ، وإن كان أساس معرفة الجزئى فإنه لا يكون العلم الحقيقى.

والفلسفة هي العلم ببعض الأسباب وبعض المبادئ فما هى هذه العلل والمبادئ.

إنها العلل والمبادىء الأولى.

وعلم ما بعد الطبيعة هو العلم الباحث فى الموجود بما هو موجود ، وهذا أعم الأشياء ، ولذلك كان العلم بما هو أعم ، بينما العلوم الجزئية تتناول نواحى معينة محدودة : كالرياضيات تدرس المقادير ، والطبيعيات تدرس الحركة.

علم ما بعد الطبيعة يدرس الموجود بما هو موجود وصفات الوجود الجوهرية . فما هى هذه الصفات ؟ هى : الواحد والكثير ، والذات والغير ، والامتداد بوجه عام؛ والمتقدم والمتأخر ، والجنس والنوع ، والكل والجزء .

وعلى هذا العلم أيضاً أن يفسر المبادىء الخاصة بكل علم علم ، مما هو مفترض في هذا العلم دون أن يبحث هذا العلم فيه.

وكل معرفة حقيقية هى معرفة بالعلل . ولهذا كان البحث عن العلل الأساس الأول في المعرفة.

وينتهي أرسطو إلي أن العلل أربع : فاعلية ، غائية ، مادية ، صورية . فالمنضدة التى أكتب عليها علتها الفاعلية هى النجار ، والغائية هى إمكان الكتابة ، والمادية هى الخشب ، والصورية هى الصورة التى هى عليها ، وهذه الصورة هى ماهيتها وحقيقتها . وأهم هذه العلل العلة الصورية.

والجوهر هو الموجود الحقيقي ، ولهذا كان نظر الفلسفة الأولى فى الجوهر : من حيث علله ومبادؤه.

و «الجواهر ثلاثة : منها جوهران طبيعيان ، وثالث جوهر غير متحرك . ونحن الآن في طلب هذا الجوهر الذى لا يتحرك ، ولم يَزَلْ كذلك . فيُطْلَب : هل يمكن أن يكون جوهر لا يبليه الزمان ، ولا يقبل الاستحالات والتغايير ، لكن يبقى على حاله الدهرَ كلَّه؟ وليس يمكن أن يقام على هذا المبدأ برهان. فإن البرهانِ لا يكون إلا

عن علل ومبادئ. والعلة الأولى التى هى المبدأ الأول لا توجد لها علة قبلها . لكنا ننظر : هل يمكن أن يكون جوهرٌ ما أزليا ؟ ثم نبحث هل يمكن أن يكون جوهرٌ غير متحرك ؟ ـ وهاتان صفتان للمبدأ الأول.

«فنقول : إن كانت الجواهر كلها تقبل الفساد ، والجوهر قبل جميع الأشياء الموجودة ، لزم أن تكون جميع الأشياء الموجودة تقبل الفساد . لكنه لابد من أن يكون للموجودات جوهر دائم الوجود ، عنه وجودُها . وليس بعجب أن يكون فى الموجودات جوهر أزلى ، إذ كنا نجد أشياءَ ـ من طبيعة الأعراض ـ أزليةً لا تفسُد . فإن الحركة والزمان ليس يمكن أن نضع لهما كوناً وفساداً . فإنّا إن وضعنا الزمان كائناً ، لزم أن يكون الزمان أقدمَ من كونه . وإن وضعنا أنه يفسد ، تخلّف بعد فساده . فإن قول القائل : قد كان وقت لم يكن قبله زمان ، وسيكون وقت بعده زمان ، هى ألفاظ تناقض أصولها . لأن معانى هذه الألفاظ إنما هى أجزاء الزمان، أو حدود فيه ، أو دلالات مقرونة به . فإن كان الزمان أزلياً ، فالحركة أزلية ، إذا كان الزمان مقداراً لها ، أو حَدثاً عنها . وأيضاً ، فنقول إن الحركة لا تخلو أن تكون لم تَزَلْ ، أو تكون : إن كانت حدثت ، فقد كان

قبلها المحركُ لها . فكيف يمكن أن نتوهم المحركُ لها ، وهو أزلى، لم يكن عنه (أى التحريك) الدهرَ كله ، وليس مانع يمنعه من أن يكون عنه ، ولا حدث حادث فى حال ما أحدثها؛ إذ كان جميع مايحدث، إنما يحدث عنه وليس شيء غيره يعوقه أو يرغبّه . ولا يمكن أن نقول :- قد كان لا يقدر أن يكون عنه فقدَرَ - لأن ذلك يوجب الاستحالة ، ويوجب أن يكون شيءٌ آخر غيْره هو الذى أحاله . وإن قلنا إنه منعه مانع ، يلزم أن يكون سبب المانع أقوى . وحدوث الحركة ليس يكون إلاّ بحركة . فيجب أن يكون قبل الحركة حركة : لأن الاستحالة والتغير والفتور إنما هى من أنواع الحركة . ولابد من أن يكون جسم من الأجسام هو الذى يتحرك فإذا قلنا إن ذلك الجسم لم يحدث ، لكنه تحرك عن سكون ، وجب أن نخبر بالسبب الذى له تغير من السكون إلى الحركة . فإن قلنا إن ذلك الجسم حدث ، تقدم حدوثُ الجسم حدوث الحركة.

«فإذ قد بان أن الحركة والزمان أزليان ، فالجسم أزلى. وإن كان العرض كذلك ، فبالحرى أن يكون الجوهر كذلك . والحركات : إما مستقيمة ، وإمّا مستديرة . والأتصال لا يكون إلا فيها (أى فى

المستديرة) ، لأن المستقيمة تنقطع . والاتصال أمرٌ ضروري للأشياء الأزلية . فإن الذي يسكن ليس بأزلي. ونقول إن الزمان متصل ، لأنه لا يمكن أن تكون قِطعٌ منه مبتورةً . فيجب من ذلك أن تكون الحركة متصلة. فإن كانت الحركة المستديرة هي وحدها متصلة أن تكون هي الأزلية ، فيجب أن يكون محرِّك هذه الحركة اليا . لأن علة الأزلية يجب أن تكون أزلية ، إذ لا يكون ما هو أخسُّ علة لما هو أفضل . فيجب أن يحرك تحريكاً دائماً . فإنه إن كان محرِّكاً لكن ليس تحريكه بدائم ، فتحريكه لا يكون أزلياً ؛ وهذا لا يمكن أن يكون . فيجب إذن أن لا نقنع بجواهر أزلية ساكنة كالصور . فإذن لا ينبغي أن نضع هذه الطبيعة بلا فعْل، ولا متعطلة ، لكن قادرة أن تحرك وتحيل . فإنه لا يمكن أن المبدأ الأول موجودٌ في طبيعته ما هو بالقوة . لأنه يلزم من هذا أن يحتاج ذلك المبدأ إلى مبدأ آخر هو بالفعل ، حتي يُخْرِجه إلى الفعل ، فيجب إذن أن يكون مبدأ موجودٌ في الأشياء الموجودة، الجوهر فعلُه، فيكون أزليا ولا يشوبه شيء من الهيولي ، إذ ليس في طبيعته بالقوة.

»ولا يجب أن نظن أن القوة قبل الفعل : لأن الفعل هو المُخْرج لما بالقوة إلى الفعل . فإنه ليس شيء من

المواد تتحرك بذاتها إلى الصورة . لكن كما أن الخشب لا يتحرك من ذاته إلى صورة السرير ، كذلك دم الطمث، والأرض لا تنبت شيئاً من النبات من ذاتها . وما كانت حركته دائمة ، فينبغي أن نجعل السبب فيها العلة التي حالها بالقياس إلى الأجسام المتحركة حالٌ واحدة : فأما ما حركته مختلفة في أوقات مختلفة ، فحال العلة المحركة له في الاختلاف كحال المتحرك بعينها . والأجسام الكائنة الفاسدة لا تثبُت وقتاً واحداً بحالٍ واحدة . فإذاً تحتاج إلى علة تختلّف بحسب اختلافها . ولأن الكون والفساد دائمٌ لا انقطاع له ، فقد تحتاج العلة الفاعلة أن تكون مع اختلافها دائمة البقاء . فيجب أن يكون الاختلاف في هذه العلة من قبَلها ، والدوام من سبب آخر فهو إذن : إما من العلة الأولى ، وإما من علة أخرى غيرها . ويجب ضرورةً أن يكون من العلة الأولى ، فإن هذه العلة هي السبب في بقائها دائماً وبقاء العلة الثانية . فصارت العلتان جميعاً علّتي الدوام والاختلاف . وهذا شيء شهد الحسُّ عليه أيضاً : إذ يرى أن الفلك الأول يتحرك دائماً حركة واحدة بعينها ، وأفلاك المتحيِّرة (أي الكواكب السيارة) تتحرك دائما حركة مختلفة . فإذا كان كذلك ، فما حاجتنا إلى طلب

مـبـادىء آخَـرَ وترك هـذه المبـادىء!» (راجع كـتـابنا : «أرسطو عند العرب» ص ١٢ - ١٤).

هكذا يشـرح ثامسطيوس المقدمات التى تأدى منهـا أرسطو إلى إثبات مـحرك أول غـير متـحرك ، تتـحرك به سائر الأشياء ، وهو أزلى أبدى ، باق ، قديم . وهو عقل وحق أول فى الغاية.

لكن كيف يتأتى أن يحرك هذه المحرِّك الأول دون أن يتــحـرك ، لأننــا نشـاهد دائمـاً فى الطبـيـعــة أن كل مـحـرِّك فـهـو مـتـحـرك فى نفس الوقت؟ إنه إن تحـرك تغير ، والتغير يكون ويفسد ، فهو ليس إذن أزلياً أبدياً ثابتاً.

والجـواب أن العلة «الأولى إنما تحـرك كـمـا يحـرِّك المعشوق . وأول مـا يتحـرك عنها ويقرب منها ويعشقها ويَحْرِصُ على التشبه بها ـ السماءُ الأولى وفلك الكواكب الثابتة إذ كان قريباً منها ، قد استفاد نظامها الذى إياه يعشق على غاية ما يمكن : بمنزلة ما يستفيده القائد من مرتبـة المَلِك ، إذ كـان يقـرب مـنـه لا فى الموضع لكن فى الطبيعـة . ثم تتبـع السمـاءَ الأولى وحركـاتـهـا ، التى بعدها : وهى حركة فلك الكواكب الثابتة وحركات أفلاك

الكواكب المتحيرة وسائر الأشياء الباقية التى تقبل الكون والفساد» . (الموضع المذكور ، ص١٦).

والله هو العقل على غاية الحقيقة ، وهو أيضاً المعقول عل غاية الحقيقة : فهو عقل ومعقول معاً . وتعقله إنما هو لذاته ، لأن شرف العلم بشرف المعلوم فلما كان الله أشرف الموجودات ، فينبغى أن يكون معلومه أشرف المعلومات ، أى أن يكون تعقله لذاته . وتعقله لذاته هو فعله الدائم ، وهذا العقل الدائم هو حياته . و «الله ناموس حى وسبب نظام الأشياء الموجودة وترتيبها . وهو ناموس حيٌ كما لو أمكن أن يكون الناموس متنفساً يرى ذاته ويعقل ذاته . وحياة هذا الناموس ليست هى حياة دائمة لا أول لها ولا انقضاء فقط ، لكن على غاية الفضيلة . وكذلك أن أفضل الحياة العقل ، وأشرفُ جميع ما له حياة . وحياته ليست فى وقت بعد وقت بأحوال مختلفة مثل حياتنا ؛ لكن هو الحياة بعينها ، لأنه هو الفعل ، والفعل حياة . وكما أنه أفضل الأفعال ، كذلك هو أفضل الحياة . وكما أنه فعلٌ أزلى دائم ، كذلك هو حياة أزلية دائمة ... إن الله حياة أزلية دائمة فى غاية الفضيلة ،

فيجب أن تكون لله حياة أزلية وبقاء متصل أزلى دائم الدهر كله» . (الموضع المذكور ٢ ص١٨).

لكن أرسطو ، بعد هذه النبرات العالية فى تمجيد العلة الأولى ، جاء فى الفصل الثامن من مقالة اللام فراح يبحث عن عدد الحركات الأزلية الأبدية ووجدها إما ٤٧ أو ٥٥ ، ورأى أن يكون عــدد العلل الأولى المحركة بعدد هذه الحركات أى ٤٧ أو ٥٥ . لكنه فى الفقرة ١٠٧٤ أ ٣٢ – ٣٨ يستدرك على هذا التكثير للعلة الأولى فيقول كما لخصه ثاسطيوس : «إنه إن كان العالم أكثر من واحد ، فيجب أن تكون العلل الأولى أكثر من واحد . والأشياء التى صورتها واحدة وعددها كثرة يكون السبب فى كثرتها المادة والعنصر . والمحرك الأول لا تشويه الهيولى ، ولا هو ذو جسم ، فيجب أن يكون المحرك الأول واحدا فى الحد والعدد والجسم المتحرك أيضاً ، إن كان متصل الحركة ، يجب أن يكون واحداً . فالعالم واحد» (الموضوع نفسه ص١٩) . وإذن فالعلة الأولى واحدة أى أن «الله» واحد.

كما أنه رأى من ناحية أخرى ، فى ختام مقالة اللام هنا ، أنه لو كانت المبادىء كثيرة لم تكن السياسة خير

السياسات . قال ابن رشد شارحاً لهذه الجملة : «يريد (أى أرسطو) : وإن كانت المبادىء الأولى للعالم مبادىء مختلفة ، فى الموجودات التى ها هنا لا يمكن أن توجد فيها خير السياسة ، ولا نظام يشبه نظام السياسة وخيره ، كما أنه إذا كانت الرئاسات كثيرة لم يوجد للسياسة نظام ولا استقامة واعتدال ، ولذلك كما قال : لا خير فى كثرة الرؤساء ، بل الرئيس واحد» (ابن رشد : «تفسير ما بعد الطبيعة» جـ ٢ ص ١٧٣٥ - ١٧٣٦).

وهكذا ينتهى أرسطو إلى التوحيد.

، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٨٦٠

I.S.B.N 977-01-4388-x